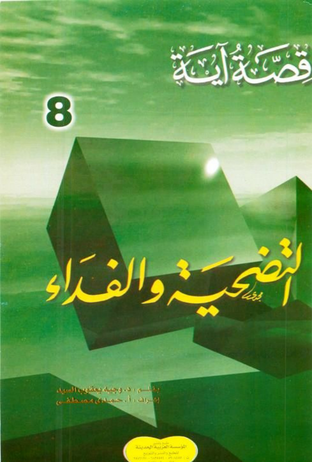

قصة آية
8
التضحية والفداء
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

التضحية والفداء

قَالَ (تَعالَى) :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

[البقرة : ٢٠٧]

بَعْدَ أن اشْتَدَّ إيذاءُ الْكُفَّارِ لِلرَّسُولِ ﷺ وللْمُسْلمين بمَكَّةَ ، قَرَّرَ الرَّسُولُ ﷺ الْهِجْرَةَ إلى الْمدينَةِ الْمنوَّرَةِ هُوَ وأَصْحابُهُ ، عَسَى أَنْ يَجِدَ فِيها الْمَكانَ الْمُناسِبَ لنَشْرِ الإسْلامِ ، والْمَأْوَى لأَصْحَابه من اضْطهادِ الْمُشْرِكين لَهُمْ .

وكَانَ من الْمُقَرَّرِ أَنْ يُهاجِرَ الرَّسُولُ ﷺ بصُحْبَةِ أَبى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وصُهَيْبِ بنِ سِنَانٍ

وَلكِنْ حَالَتِ الظُّرُوفُ دُونَ تَمكُّنِ صُهَيْبٍ مِنْ مُصَاحَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ .

وذَهَبَ الرَّسُولُ ﷺ مُتَخَفِّيًا إلى بيتِ أبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِى وَقْتِ الظَّهِيرَةِ حَتَّى لا يَعْتَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ طَرِيقَهُ ، فَقَدْ كَانُوا يَنامُونَ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ بِسَبَبِ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ .

وَمَا إِنْ رَأَى الرَّسُولَ ﷺ أَحَدُ أَبْنَاءِ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى قَالَ لأَبِيه :

ـ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَ مُتَخَفِّيًا ، وَمَا أَرَاهُ جَاءَ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ إلا لأَمْرٍ مُهِمٍّ .

فَنَهَضَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ مَكَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ فِدَاهُ أَبِى وَأُمِّى ، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ إلا أَمْرٌ .

وَدَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ ، وَسَلَّمَ عَلَى الْحَاضِرِينَ ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ :

ـ اخْرُجْ مِنْ عِنْدِكَ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ :

ـ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ :

ـ فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ .

فَتَهَلَّلَ وَجْهُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَقَفَزَتِ الْفَرْحَةُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَقَالَ وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا يَسْمَعُ :

ـ الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ نَعَمْ .

فَقالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

ـ فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى راحِلَتَيَّ .

فَقالَ ﷺ :

ـ بِالثَّمَنِ .

وجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الرَّاحِلَتَيْنِ ، وانْطَلَقَ بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ ﷺ مُهَاجِرَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وتَعَرَّضَا لِلْكَثِيرِ مِنَ الْمَتاعِبِ والْمَشَقَّةِ فِي طَرِيقِ الْهِجْرَةِ حَتَّى وَصَلا سَالِمَيْنِ فِي نِهايَةِ الأَمْرِ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَسْطَ مَظاهِرِ احْتِفالٍ كَبِيرَةٍ وفَرْحَةٍ غامِرَةٍ مِنْ المُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ .

ولَمْ يَنْسَ الرَّسُولُ ﷺ وأَبُو بَكْرٍ صاحِبَهُمَا

صُهَيْب بن سِنَان الَّذى مَنَعَتْهُ ظُرُوفٌ قاهِرَةٌ من اللحاق بهما ، فَدَعَوا لَهُ بالسَّلامة والنَّجاة .

فَبَعْدَ أنْ خَرج صُهَيْبٌ مُتَّجِهاً إلى المَكان الَّذى حَدَّدَهُ الرَّسُولُ ﷺ للِّقاء ، لَحِقَ به كُفَّارُ مكَّةَ فى مُنْتَصَف الطَّريق .

وكانَ صُهَيْبٌ من أكْثَر النَّاس إتْقاناً للْمُبارزة والرَّمْى بالرُّمح ، فَلَمَّا رَأى المُشْركينَ يُحيطُون به من كُلِّ جانبٍ نَزلَ عن راحلَته ونَثَر ما فى كنانته وأَخَذَ قَوْسَهُ ، ثُمَّ قالَ :

ـ « يا مَعْشَرَ قُرَيْش ..

لَقَدْ عَلمْتُمْ أنِّى من أرْماكُمْ رَجُلاً ..

وأيْمُ اللَّه لا تَصِلُونَ إلَيَّ حتَّى أرْمى بكُلِّ سَهْمٍ مَعِى فى كنانتى ، ثُمَّ أضْربكُمْ بسَيْفى حتَّى لا يَبْقى

فى يدى منه شىءٌ ، فأقدموا إنْ شئتُمْ » .

ونظرَ المُشركونَ إلى صُهَيبٍ فرأوهُ كالأسدِ الهائجِ الَّذى لا تُوقفُهُ قُوَّةٌ ولا يرهبُهُ شىءٌ ، فأحجمُوا عنِ التَّصدِّى لهُ أوْ مُنازلتِهِ فى معْركةٍ هُمْ أوَّلُ الْخاسرينَ فيهَا .

وفكَّرَ الْمشْركُونَ فى شَىءٍ يربحُونَهُ منْ صُهَيبٍ وينَالُونَهُ منْهُ مـا دامُوا عاجزينَ عنِ النَّيلِ منْهُ فقَالُوا :

ـ هلْ تحبُّ أنْ نتْرُكَكَ وشأْنَكَ كىْ تلْحقَ بأصْحابكَ ؟

فقَالَ صُهَيْبٌ :

ـ نعَمْ .

فقَالَ الْمُشْركُونَ :

ـ لَقَدْ جِئْتَنا فَقِيراً صُعْلُوكاً ، فَكَثُرَ مالُكَ عِنْدَنا ، وبَلَغْتَ بَيْننا ما بَلَغْتَ ، والآنَ تَنْطَلِقُ بِنَفْسِكَ ومالِكَ ؟

فَقالَ صُهَيْبٌ :

ـ وإنْ دَلَلْتُكُم عَلى مالِى تَتْرُكُونى وشَأْنى ؟

فَقالُوا :

ـ وما حاجَتُنا بِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، إنْ دَلَلْتَنا عَلى مالِكَ تَرَكْناكَ .

ولَمْ يُكَذِّبْ صُهَيْبٌ خَبَراً ، فَدَلَّ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمكانِ الَّذِى أَخْفَى فِيهِ ثَرْوَتَه ، فَتَرَكُوهُ يَمضِى إلى حالِ سَبِيلِه ، ثُمَّ رَجَعُوا إلى مَكَّةَ لِكَىْ يَبْحَثُوا عَنْ هذِه الأمْوالِ الَّتى ظَنُّوا أَنَّها سَتُعَوِّضُهُمْ عَنْ رَحيلِ هذا الْبَطَلِ .

وعادَ الْمُشْرِكُونَ إلى مَكَّةَ ، وذَهَبُوا إلى الْمَكانِ الَّذى أَخْبَرهُمْ بِهِ صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ ، وبِلا جهْدٍ وجَدُوا المالَ والثَّرْوَةَ فى الْمَكانِ الَّذى حَدَّدَهُ صُهَيْبٌ ، فَقالَ بعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

ـ لَقَدْ كُنَّا واثِقِينَ مِنْ صِدْقِ صُهَيْبٍ . فَما جَرَّبْنا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ كَذِبًا أَوْ خِيانَةً .

وتَقَاسَمَ الْمُشْرِكُونَ هذه الأَمْوالَ واسْتَوْلَوْا عَلَى دارِ صُهَيْبٍ وهُمْ يَقُولُونَ :

ـ نَحْنُ أَحَقُّ بِهذهِ الأَمْوالِ والدِّيارِ مِنْ أُولَئِكَ السُّفَهاءِ الَّذينَ فارَقُوا دِينَ آبائِنا وأَجْدادِنا .

وعَلَى الْجانِبِ الآخَرِ كانَ صُهَيْبٌ يُعانى مَشاقَّ الرِّحْلَةِ وطُولَ الطَّريقِ وقِلَّةَ الزَّادِ ، تَلْفَحُهُ الشَّمْسُ

الْحَارِقَةُ ، وتَذْرُو الرِّيَاحُ رِمَالَ الصَّحْرَاءِ عَلَى وَجْهِهِ وفَوْقَ جَبِينِهِ ، ومَعَ ذَلِكَ فَكَانَ وَجْهُهُ الْمُجْهَدُ لا تُفَارِقُهُ الابْتِسَامَةُ ولا يَغِيبُ عَنْهُ التَّفَاؤُلُ والأَمَلُ ، فَبَعْدَ وقْتٍ طَالَ أَوْ قَصُرَ سَيَكُونُ بَيْنَ يَدَى حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى ﷺ ، وسَيَسْعَدُ بِقُرْبِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ الكِرَامِ ، الَّذِينَ رَبَطَ الْحُبُّ بَيْنَهُمْ بِرِبَاطٍ قَوِيٍّ مَتِينٍ لا تَقْطَعُهُ الأَيَّامُ ولا تُذِيبُهُ الأَحْدَاثُ .

وهَاهُوَ ذَا يُطِلُّ بِوَجْهِهِ الْجَمِيلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِى كَانَ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ .

ومَا إِنْ رَآهُ الرَّسُولُ ﷺ قَادِمًا حَتَّى نَادَاهُ بِوَجْهٍ مُتَهَلِّلٍ ، وهُوَ يَقُولُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ :

ـ رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى .

رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى .

فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وعُمَرُ بْنُ الخطَّابِ يُهَنِّئَانِ صُهَيْبَ بْنَ سنانٍ بِبُشْرَى الرَّسُولِ ﷺ لَهُ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ :

ـ رَبِحَ بَيْعُكَ أَبَا يَحْيَى .

وقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ كَذَلِكَ .

فَقَالَ صُهَيْبٌ :

ـ وَبَيْعُكَ فَلا يَخْسَرُ . فَمَاذَاكَ ؟

وشَاءَ اللَّهُ أَنْ يُكَافِئَ هَذَا الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلَ الَّذِي تَرَكَ كُلَّ ما يَمْلِكُ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَنْزَلَ قَوْلَه (تَعَالَى) :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

[البقرة : ٢٠٧]

وبيّن فى هذه الآية الكريمة أنَّ ما فعله صُهيب بن سنان وغيرُهُ من الصّحابة كان ابتغاء مرضاة اللّه ، فقدْ باعوا أنْفُسَهُم للّه (تعالى) وتركوا ديارهُمْ وأموالهُم طمعًا فى رِضْوان اللّه (تعالى) ، واللّهُ تعالى الرّؤوف بعباده لن يُضيعَ أعمالهُم ولن يحْرمهُمْ من قُرْبه والأُنْس به ، فكما صدق هؤلاء فى إيمانهمْ ، فإنَّ اللّه (تعالى) سيصْدُق فيما وعدهُمْ به من رحْمة وجنّات عرْضُها السّموات والأرْضُ أُعدّتْ للْمُتّقين .. ومنْ أوْفى بعهْده من اللّه ؟

قال (تعالى) :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ

وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[التوبة : ١١١]

لَقدْ كَانَ إيمانُ الصَّحابَةِ ـ رِضْوانُ اللَّهِ عَلَيْهِم ـ بربِّهِم إيمانًا حقيقيًا ، لَمْ يكُنْ مُجرَّدَ كَلامٍ يُقالُ مِن طَرْفِ اللِّسانِ ، لكنَّهُ كانَ واقعًا حيًّا يُجسِّدُ أَعْظَمَ الْمَشاعِرِ والأَحاسِيسِ نحوَ ربِّهِمْ .

ولِذلكَ فَقدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَحابَتِهِ ـ رِضْوانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ـ :

« أَصْحَابِى كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقْتَدَيْتُم اهْتَدَيْتُم » .

كَمَا قَالَ ﷺ :

« خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، ويَمِينُهُ شَهادَتَهُ » . [رواه البخارى]

وإذا لَمْ يكُن لهؤُلاءِ الصَّحابَة من فَضلٍ سوى نَشْرِ الإسْلامِ فى رُبُوعِ الأَرْضِ ودَعْوَةِ النَّاسِ إلى قيمِ الْحَقِّ والْخَيْرِ ، والْجِهادِ فى سَبِيلِ اللَّه ، وحفظِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ وأَحاديثِ الرَّسُولِ ﷺ ، حتَّى وَصَلَتْنا كامِلَةً صَحِيحَةً مَصُونَةً .. إذا لَمْ يكُنْ لَهُمْ منْ فَضْلٍ سِوَى ذَلِكَ ، فإنَّهُ يَكْفِيهِمْ عنْدَ اللَّه (تَعالَى) وعِنْدَ المسْلمين .

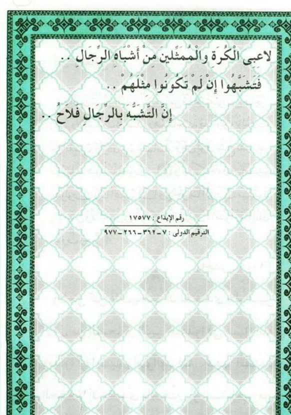
ولِذَلِكَ فَإنَّ واجِبَ المسْلِم أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِهَؤُلاءِ الصَّحابَةِ وأَنْ يَستَنَّ بِسُنَّتِهِم ، لأَنَّ رابِطَةَ الإيمانِ يجِبُ أَنْ تَكُونَ قَوِيَّةً ، ولَوْلا جُهُودُ هَؤُلاءِ الصَّحَابةِ الكِرامِ وجِهادُهُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ لَما وَصَلَنا الإسْلامُ بِسُهُولَةٍ .

قَالَ (تَعَالَى):

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا
بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحشر: ٩، ١٠]

ولأجْلِ كُلِّ ذَلكَ يجبُ أنْ نَقْتَدِى بالرَّعِيلِ الأوَّلِ منَ الصَّحابَةِ الَّذينَ جاهَدُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ وبَذلُوا أرْواحَهُمْ وأمْوالَهُمْ للَّهِ ، فَهُمُ الْقُدْوَةُ الْحَقَّةُ لا أنْ نَقْتَدِى بالْمُغَنِّينَ أوِ الْمَشَاهِيرِ منْ



لاعبى الْكُرَةِ والْمُمثِّلِين مِنْ أَشْبَاهِ الرِّجَالِ ..

فتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ..

إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالرِّجَالِ فَلَاحُ ..

رقم الإيداع : ١٧٥٧٧

الترقيم الدولى : ٧ ـ ٣٦٢ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧